



حزيران بين الافندية.. "واحمد سعيد"

● أحمد سلامة

كنت اكبر من عمرك الان بأربع سنوات فقط... وكانت بلدتنا، قمرا في السفح، يمد لسانه صوب الساحل، كي يستطعم بحلاوة فلسطين كلها... وكان جدك "ابي" يرحمه الله، المتحدر من معاناة الأتراك لا يكونني الا بذكريات العودة، الى هناك.... ويشير باصبعه السبابة نحو البحر... واره يقترب من راحة يده حين يفعل بمبررات الرجوع... وكأنه صعد النينا في السفح...



.....
في عام ١٩٦٧، اخذت ملامح الناس تتبدل، وحالة من العصبية، بدأت تغطي كنا بسهولة كفتيه نتمكن من ملاحظتها، ورصدها في الحوارات التي بدأت تشعشع على كراسي القش امام دكاكين بلدتنا...

.....
عبد الناصر... "سيلعن ابوههم"، ويحررها في ٢٤ ساعة!!..

كان الناس في بلدتنا متحمسون لعبد الناصر، بطريقة مجنونة... الا امام المسجد... "الحاج داهود" يرحمه الله...
ففي ايار، تصير قريتنا يا ولدي "بيدر حكايا"، تسلفت مع مجموعة من الصحاب خلف بقالة "غالب" وهو دكنجي.. يفرك زر مذياعه ليسمع كل محطات الدنيا.. ويدعه يهدر بأعلى صوته، ويتلذذ على مذيع تلك المرحلة الأشهر "احمد سعيد" من صوت العرب.. ويحسس المارة بحركات عينيه ان توافقا، يحبه للغاية بينه وبين احمد سعيد فيما يقوله وعلى اهل البلدة احترامه..

.....
حين تسللنا ليلتها لنفهم الحوار، كان امام مسجدنا قد بلغ به الغضب من كلام احد صعايك القرية

البقية ص ١٨

حين بدأت الكتابة عن ذكرى "الاثنين" الخامس من حزيران، لم تكن بدايته، هذه البداية، ولا مطلعها هذا المطع، فقد مزقت الصفحات الخمس التي كتبتها لابدأ بالعبارة التالية:

"هذا مقال أكتبه لولدي الحبيب "رفعت"، لانه ما ذاق طعم المر. ولا رأى "قيطان" "بسطار اليهودي" يلمع في وجهه، كي يتذكره في كل لحظة. لانه "ولد في وطن" حر كريم، غروبي، أمل له حين يكبر ان يكون اردنيا متفانيا حتى الموت، في عطاء هذا الأردن قيادة، وارضا وهواء، لانه لا يستطيع ان يعرف طعم الوطن الصامد، ومعنى الارض الباقية، الا من عاش لحظة "الاثنين" في الخامس من حزيران..

وكدت ان اقول لولدي...
... يا ولدي...
اصعب لحظة في حياة الانسان، ان يكون بلا وطن والوطن بين يديه...

.....
ولهذا ساروي لك قصة هذا "الحزيران"، كي لا يغويك أحد، يوما ما.

ويقول لك...
وماذا يعني، ان تكون محتلا والله... الوطن الذي لا يقدم لي وظيفة او ساعة "رولكس"، الاحتلال أفضل منه!؟ اريدك حينئذ ان تقول له...

الوطن الجائع، والوطن الذي فيه سلبيات، والوطن المديون.. والوطن الصحراوي، والوطن الذي يعاني من البطالة.. احميه برمش عيني، وازرع قلبي على حدوده، كي يستحيل اقتحامه... وامضي أنا، ويبقى هو...

ساعتها... قل له...
"كدت ان اطلب منك شيئا مجنونا: من يرفع عشق الوطن في حوار معك... اقتله... لانه بسلبيته لا محالة سيقتلك ويقتل نفسه، ويغتال الوطن...!!



أبدأ بالحكاية يا ولدي...!!

ذروته... وسمعناه يقول...

"اسمع يا "ابو السعيد"، لا تعتبر ان سماعك للراديو المدلى في رقبتك يؤهلك، بتفهمنا الوضع.. واكمل الامام

"انا جاي من نابلس" اليوم، وسمعت الافندية فيها يتحدثون بلهجة عن الحرب غير لهجة صاحبك هذا.. و اشار الى الراديو المثبت في حجر الصعلوك، والذي يهدر دوما بصوت احمد سعيد...

وتشوق الناس المتحلقين حول الحوار، للاستماع اكثر عما يقوله افندية المدينة الارقي!! وككل الناس المدربين على الخطابة.. اراح. هذا الصمت "امام مسجدنا" وتأخر في النطق كي يضيف الى كلامه وقارا اشد...

وبهدوء... جاء صوت الحاجة الوحيدة المسموح لها في قريتنا مجالسة الرجال لانها اختهم... قالت "ام النمر" متسائلة بخبث...

وهالافندية، اللي شوفتهم يا شيخ، افهم من احمد سعيد؟!

وكادت ان تخرب الجلسة... وضعنا بين احمد سعيد وافنديتنا.

وطال النقاش ليلتها، وانسحب الامام اكثر من مرة ونسترضوه مطولا... ولم افهم ليلتها الا شيئا واحدا من ذلك "المولد السياسي"...

"لو كنت اكبر من ذلك لفهمت اكثر، ولو كنت اكبر من ذلك لذهبت الى الافندية، وفهمت منهم "الطابق" على حقيقته..

حتى ايار يا ولدي... كنت اظن ان قرار التحرير، يقرره إما "احمد سعيد"، او الافندية!!

المهم يا ولدي، ان اخطر عبارة سمعتها في ايار عام ٦٧، من شخص من اقاربنا يعمل في احدى مستودعات الادوية في عمان، وجاء في احدى ليالي الخميس بايار، واصطحب اثاث منزله على قلته وافراد أسرته الى عمان.. ولما رأينا الشاحنة تصطف بجوار المسجد، ويقوم بعض اقاربه بوضع حاجياته فيها كان يحدث شخصا يمت له بصلة قربي، كان الحديث بينهما همسا... قال له...

● شو الوضع يا صابر؟!

●● والله يا عمي لو "صاحح" للاردن ان ما يدخلها ما يدخلها... لكن شو يعمل...!!

هل تعلم يا ولدي...

انني كنت بحاجة الى حوالي عشرين سنة كي يتسنى لي استيعاب ما قاله "صابر"!!

وهل تعلم أنني لم استوعب ما كان يقصد.. الحرب.. وموقف الاردن من الحرب...

ايام بعد رحيل صابر من قريتنا، ودخلنا في حزيران، او دخل هو فينا،

وساعات من دخولنا الى حزيران، حتى دخل اليهود علينا...

ما أمر الهزيمة يا ولدي، وما اشد وقعها...!!

هيك راحت البلاد، صرخ جدك يا رفعت باكيا في وجه اخيه "ابو الحكم" الذي يفهمه السياسة....

بكي عمي هو الاخر...

وقال له، والله راحت يا خوي...!!

حين صار حزيران يكبر، وهزيمتنا تكبر معه... صار وعينا بالاشياء، واحاطتنا بها تكبر هي الاخرى....

ومع مرور هذه السنوات العشرين وسنتين... تغيرت اشياء كثيرة... لكن ظلت اشياء كثيرة ايضا على حالها...!!

مات جدك، وانتقل من فوق الارض المقدسة الى بطنها راضيا مرضيا..

وعمك عباس الذي تركته طفلا. صار كبيرا وطويلا كتنشيد ساحلي ويتنفس من ثقب زنزانته الابدية في السجن هناك يوشوش بالحب وبالارادة....

واغتنى فقراء كثيرون، انتقلوا من خاتة الحب لوطنهم الى قباب الافندية، والوجاهة، وانضموا الى الجوقة، ويخشون قول الحق، لان الحق، يخسرهم ملايينهم...

وسترى يا ولدي منهم الكثير في حياتك.. حيث سيأتي السائق في سيارة "الابا" الفارغة للغاية، ليضعه على باب مدرستك وسيحككي لك ابن الافندي، عن نضال ابيه في اوروبا وامريكا، وسنغافورة من اجل الوطن، وسيهمس في اذنك قائلا، نحن من اسرة وطنية، وسأذهب لاستكمال دراستي في امريكا خدمة للقضية...!!

سنتكشف يا ولدي... ان الذين لا يحبون الاردن، ويعتبون عليه صباح مساء، هم الذين يطلعون بسياراتهم على "اليسار" لانهم يساريون، وحين تأتي العشية، يمارسون كل يمينيتهم، بالانفاق، والشرب، والسفر، وبطاقات الانفاق المجنون، بارقامها السرية....

في هذا "الحزيران"... اذكر لك مسالتين ايها الحبيب...

اولهما:-

ان افندية بلدنا، قد زادوا، ولم يتناقصوا. وان هؤلاء الافندية، لم يقولوا في العلن، ما يقولونه في السر... وانهم ما زالوا على حالهم، يمتنعون بكل خيرات الوطن، وحين يصبر الحديث عن العودة والتحرير يقولون كلاما عاما، يرضي جميع الاطراف، الا طرفا واحدا، هو انت ابن هذا الوطن الذي تخشى عليه...

وكذلك فان افنديتنا يا ولدي، لم يقولوا لنا، كيف ضاعت البلاد، وكيف انتقلوا من خاتة القومية الى حالة القطرية.. ومن المسؤول عن كل الذي جرى وما دورهم فيه...!!

ثانيهما:-

ان من قاتل، ومن لم يوقع، ومن لم يفك اشتباك ولا دخل في معاهدة، حتى اللحظة التي اكلمك فيها هو هذا الوطن الاحل... الاردن....

من طلعة عبد اللطيف كريشان البهية.. في وادي التفاح الذي اختلط لون العناب النابلسي بدمه. لحظة استشهاده في نابلس، مرورا بحرب الاستنزاف الاردنية ضد العدو التي دامت ثلاث سنوات، ما ظل شبر اردني الا وزرع بالنابالم من كفر اسد حتى الكرك.. وانتهاء بقول الاردن "لا"، لكاتب ديفيد، و "لا" لمشروع شولتز، وغيرهما غير معلوم لك يا ولدي...

هو الاردن الضمانة ولا يمكن ان تكون فلسطين لك الا اذا احببت هذا الاردن المعجزة...

وحتى لا تتكرر حزيران من جديد.. لاننا نخافها.. كن اردنيا صادقا حتى النخاع، ولا تلق بالا لكل زيد الافندية ولا تستمع "لاحمد سعيد"، ونم كل يوم على الايقاع الاعز

اردن، يا اردن، يا حبة عيني...!!